عمران دمشق

في القرون الحديثة

بعد وقعة مرج دابق قرب حلب بين العثمانيين والجراكسة وقتل الغوري استولى السلطان سليم على دمشق صلحًا سنة ٩٢٢ فمكث بها اشهرًا وعمّر بها بعض المباني . وبعد مُنصَرفهِ قام جان بردي الغزالي كافل دمشق وغيرها من بلاد الشام للدولة الجركسية طامعًا بدمشق فامر ان يُخطب لهُ على المنابر ففعل وجيَّش جيشًا من العامة فقاست دمشق في هذه المدة الوان العذاب والخوف حتى بعث العثمانيون بجيش لمحاربتهِ فدخل — على رواية صاحب الكواكب السائرة — ونهب البلد ولم يسلم منها الاَّ ما قلَّ وجرت وقائع بين الجيش التركيّ والجيش الجركسيّ انتهت بقتل جان بردي وتفرُّق اصحابهِ تحت كل كوكب ثم نُودي في البلدة بالامان سنة ٩٢٧

ومن مبدإِ الدولة العثمانية انها كانت تكتفي من البلاد التي تفتحها بالخضوع والاموال ومن بعضها بالسكة والخطبة فقط وتترك لها ما وراء ذلك من تغيير العوائد والادارة تُدَبِّر نفسها بنفسها فلا تزيد الاَّ ما تمس حاجتها اليهِ من انشاء بعض الثكن للجند كأن وقتها كان عزيزًا تصرفهُ غالبًا في الغلبة وتكبير رقعة الملك وقتال القائمين عليهِ وقطع دابر من يُخشى بأسهم في مجاذبة حبل السلطة من امراء الاسلام . وكانت إيضًا طامحة الى توسيع املاكها في اوربا لايقانها بانَّ آسيا وهي عش عنصرها الاسلامي في قبضتها تدوّخها بعد تدويخ اوربا

فاستلم البلاد ولاةٌ حكموها برأيهم غالبًا واخذوها اقطاعًا لقاء مبالغ يُؤدى الى الخزانة فتعدّى اكثر العمّال طورهم وضربوا المكس على الاحكام الشرعية وعطلوا الحدود فاستاء اكثر العقلاء لتغيّر الاحكام تغيُّرًا فجائيًا . ومما ساعد على ذلك قلة المواصلات وبعد دار السلطنة عن اكثر مراكز الولايات وان قُدّر لارباب الظلامات فوصلوا العاصمة رغم هذه المصاعب لعرض شؤُون حَرِيَّةٍ بالعرض على مسامع الحاكم الاعظم كان ولاة الامور يحولون دون ذلك . ذكر صاحب تاريخ بغداد ان العجم استولوا على البصرة واستبدَّ الوزراء الذين انفذتهم الدولة لإنقاذ البلاد من مخالب الفرس فزوَّروا منشورًا على لسان السلطان ونصبوا مَن ارادوا من الحكام ولم تبلغ هذه الاخبار مسامع السلطان عبد الحميد الاول الاَّ بعد اربع سنين

وللجند غير المنظَّم يدٌ في التخريب عرفها الملوك العظام فيما بعد ويزعم بعض من قراء التاريخ ان الانكشارية خدموا الدولة في مبدإِ امرهم خدمة نصوحًا اتت الامة بفوائد جُلَّى ولكن ما

بدر من سيئاتهم بعدُ يمحق كل حسنة سلفت وتُلف كل بلاد افتتحت . ولو وقفوا عند حدّ التوثّر على الظلم وايذاء الاهلين لما استحقوا ما استحقوهُ من التمثيل والتنكيل غير انهُ بلغت بهم القحة ان صاروا يُطيلون يد التعدّي على الوزراء وانكى من ذلك انهم صاروا يتداخلون في خلع السلاطين ونصبهم ويقتلون من شاءوا مثل سليم الثالث ومصطفى وغيرهما ويبقون في منصّة الحكم من تروقهم سياستهُ . ولما طمح الكيل منهم وقهروا البلاد والامة استنجى السلطان محمود خان في إبادتهم فافتتهُ المشيخة الاسلامية بذلك فدُمّروا سنة ١٢٤١ عن بكرة ابيهم في الاستانة والولايات بيد الجند النظاميّ والاهليّ واستراحت الامة من شرورهم وحمد الناس هذه العنابة

ولقد تحكك الخوارج على السلطنة بالفيحاء فقاست الأمرّين من ذلك ما رواهُ الغزيّ والمحبي من فتنة سنة ١٠١٥ بأن حمل عليها الامير علي بن جانبولاذ — وفي نسخة ابن جان بلاط — وخلت البلاد من أذَنَة الى حدود صفد عن حكامها فحكمها هو سنتين ولما اراد احتلال دمشق حلّ بالمزّة فاستمرّ النهب في اطراف دمشق ثلاثة ايام متوالية وكانوا يأخذون الاموال والاولاد . ووردت السكبانية او السكمانية والدروز افواجاً الى خارج المدينة وشرعوا في نهب الضاحية فصولح ابن جان بلاط على مال ادّاهُ اليهِ حكام دمشق بعد ان حدث ما حدث وجرى لدمشق من الخاوف ما يجلّ عن الوصف واجتمع فيها معظم سكان الارباض وتشتت بعضهم تاركين ارزاقهم واموالهم . وكذلك الفتنة التي جرت بين عساكر دمشق والامير يونس الحرفوش وكرد حمزة سنة ١٠٣٣ فاغتنم الانكشارية الفرصة واغاروا على المستضعفين من الاهالي وتعاقب تغيير الولاة وانحاز بعض الخوارج اليهم ونقل الناس امتعتهم واثقالهم من خارج المدينة الى داخلها مرارًا

وفي غضون ذلك كان اعداء دمشق ينهكون قواها من الداخل فقد ذكر المؤرخون ان كيوان احد كبراء الاجناد فيها المتوفى سنة ١٠٣٣ نزع الى التعدي ولا شكيمة ترُدُّ جماحهُ ولا وازع يكفُّ من عزْبهِ فأخذ الناس بالتُّهمة وتطاول الى اخذ املاكهم حتى استولى على اكثر بساتين الرَّبوة والمزّة وضمّ بعضها الى بعض وكان اذا اخذ حصة في مكان احتال على الشركاء فيهِ حتى يأخذ حصصهم طوعاً او كرهاً وكان نُوّاب محكمة الباب واعيانُ شهودها يساعدونهُ على عدوانهِ حتى هلك الحرث والنسل

ظفرتُ عند احد شيوخ العلم بتاريخ مُهم لاحمد بن بدير الحلاّق ذكر فيهِ حوادث دمشق الشام اليومية من سنة ١١٥٤ الى سنة ١١٧٦ فجاء عبارة عن جريدة يومية تنشر الغثّ

والستين من الانباء ولا تغاير صغيرة ولا كبيرة فقرأت فيه عجباً من حوادث القتل والقتال بين الرعاة والرعايا بيعت فيها الارواح والاعراض والعروض بيع الكساد . هذا وابن بدير لم يؤرخ سوى حوادث اثنين وعشرين عاماً فياليت عمره طال على الاقل مائة سنة وياليتنا نرى ما الفه عبد الله البحروي المتوفى سنة ١١٧٠ من تاريخ ابناء عصره ذاك المؤلف الذي احرقه بعض الاعيان على اعين القوم قبل ان يدفن مؤلفه مخافة ان ينتشر التاريخ بعد موت صاحبه فتنكشف سيئاتهم ويظهر عارهم وعرهم . بل ياليت ابن خلدون تأخر عصره الى هذه القرون وجاء البلاد قبل ان يكتب مقدمته المشهورة في فلسفة العمران لتتوفر لديه الشواهد الكثيرة ويحصل على مادة عيانية يبني عليها فصوله الرائقة ويتنبأ لهذا القطر كما تنبأ على غيره

قال ابن بدير بلغ مسلم الشام سنة ١١٦٢ ان بعض الدروز من جماعة ابن تلحوق جاءوا الشام ينهبون ويحرقون فارسل الى الموالي والمفتي والقاضي يأمرهم بان يأخذوا معهم الاعلام وينادوا هؤلاء خوارج فمن كان يحب الله والسلطان ليخرج الى قتالهم فخرج الناس فقتلت الحامية منهم جماعة وكان الدروز يحتجون بأن قدومهم الشام كان بغية إخراج إخوان لهم كانوا مسجونين فلما موطلوا نادوا في حارة الميدان والقبيبات كل من لا يخرج للقتال معنا ننهب ماله وداره فانضم جماعة من الحارات ونزلوا الى السويقة ووقع القتال بينهم وبين القبوقول والدالاتية وأغلقت البلد حوانيتها وحصرت الحارات ونبه المتسلم على اهلها ان لا يخرجوا الى الازقة ليحرسوا دورهم ثم جرت مقتلة عظيمة بين الفريقين قتل فيها نحو خمسين قتيلاً من جماعة المتسلم والقبوقول وجرح واحد من الدروز وقتل غلامان من العامة

ثم فتح عسكر الباشا الدكاكين في باب الجابية ليلاً ونهبوا ما فيها من طعام وإدام وهدموا مصاطبها وصيروها متاريس ومن الغد باكروا القتال وزحفوا الى السويقة ومعهم العملة والبناؤون فخرقوا الدور والقصور واطلقوا المدافع على الاشقياء فولوا الادبار فامر المتسلم عسكره ان يقعوا في نهب الدور والدكاكين ورؤي انه اخرج فتوى وحجة وامرا قاضياً بان ينهب الجند من حد السويقة ويقتلوا ويهدموا ولا يعفوا عن انسان فسلبوا الاموال وسبوا الحريم ودام الامر الى وقت العصر فردهم الاشقياء والدروز ونصرهم اهل الميدان

ولما هرب الدروز نودي في البلد بالأمان وان تفتح الاسواق ويكف عن النهب . قال ابن بدير وقد سرت مع من سار فرأيت فضائح الميدان والقتلى مجدلة والابواب محطمة والدكاكين مقفرة ثم اضطرب اهل القبيبات والميدان والسويقة وباب المصلى واخذوا ينقلون اثاثهم الى داخل المدينة مثل باب السريجة والقنوات وغيرها من الحارات . وخاف الاكابر والحكام

والعامة فجعلوا يعزلون الدكاكين ويخبأون ما حوتهُ في البيوت وبلغ عدد الدور المنهوبة في هذه الوقعة كما قيل الفاً وتسعمائة دار واما الحوانيت فلا تحصى كثرة . هذا وقد اخذ القبوقول يسكون الناس ويأتون بهم الى الحاكم ويقولون هذا كان يقاتل مع الاشقياء فيقتلهم المتسلم من غير حجة ولا إثبات ولا قصد للقبوقول الا اخذ ثارات لهم مضت مع الانكشارية الى آخر ما اصاب الشام في ذاك العام من حرق ونهب وغلاء وفضائح وفظائع

وهكذا كانت تغلق ارتجة الفيحاء وحوانيتها جملةً عند اندلاع لسان الفتن بين القبوقول والانكشارية وبينهم وبين الدلاتية والاشراف والاكراد والدروز حتى ينادي منادٍ من قبل الحاكم بأمر يفتح الدكاكين ويطمن الناس

وفي شهر صفر سنة ١١٥٨ ملك الدلاتية القلعة فقاتلهم الانكشارية وامر اسعد باشا العظم حاكم الشام ان يقصدوا سوق ساروجا وهنا أطلقت المدافع فوهاتها فخربت الدور خصوصاً دار رأس الفتنة فانها نهبت كلها ثم جرَّت القافية بقية الدور ولم يبقَ من سوق ساروجا الاَّ القليل وراح الصالح بين رجلي الطالح ثم اعمل اسعد باشا السيف بكل عاصٍ وقتل عسكرهُ اناساً وسلبوا دوراً واحرقوا بعضاً ثم شرع في صلب كثيرين وبقيت المشنقة اياماً لا تخلو ساعة من مصلوب اتُّهم بانهُ كان يمالئ ارباب الدعارة على رغائبهم وتركت جثثهم اياماً امام السراي تأكلها الكلاب وسلخت رؤوسهم وجعلت اكواماً وصارت المدافع تُطلق بكرةً وعشيةً مدة شهرين وكثر العزف بالأبواق واطلاق السهام النارية في الفضاء

وفي هذه السنة جاء دمشق احد طغاة موالي اسعد باشا العظم وكان نُقل بعد ولايته الشام الى حلب فذكر الانكشارية والعامة ظلمهُ ايام كان سيدهُ حاكماً على هذه الحاضرة فقاموا عليهِ كرجل واحد فالتجأ الى القلعة وحماهُ القبوقول ولما أُريد على الخروج من دمشق أبى واستكبر فأغلقت البلدة دكاكينها ومحافلها وتجمع الانكشارية وتبعهم الناس وتعصَّب العناتية والاكراد والدلاتية مع القبوقول واهل حارة العمارة وحدثت غارة في سوق الدرويشية وأطلقت النيران على الانكشارية ثم قاموا على اهل العمارة فانهزم اهلها منها واحرقوها حتى صارت ساحة وراح اهلها الى الجامع الاموي ودامت الفتنة اياماً حتى قرَّ رأي الاكابر والامراء على إخراج مولى ابن العظم من دمشق فأُخرج ولم تطفأ جذوة الفتنة لان الثائرين ما زالوا يتلمظون بحلاوة الغنائم ويزدردون حلواء الغارات . وجاء الخبر بانَّ الجالين عن دمشق نهبوا الضياع في طريقهم وقتلوا الانفس وهتكوا الاعراض وصادفوا جماعة من المنتسبين للحكام فسلبوهم وقتلوا منهم فريقاً

ثم اخذ القبوقول يطلقون النار على الرعية وظلّت الفتنة قائمة على ساقها في البلد بين القبوقول والانكشارية والاشراف فقتل من هؤلاء نحو ثلاثين وبضعة اولاد وثارت الحرب في اسواق المدينة اياماً ثم عنا الانكشارية على حاكم الشام فصاح في جندهِ وركب الى الميدان فهربوا امامهُ فاعمل وجنودهُ السيف فيهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً. ومن لم يمت بالسيف فادوهُ بالاغلال والسلاسل . وعمّ نهب العسكر الكبير والصغير والناس بين قتيل واسير ونهبت الدور والدكاكين وانتكبت الشام هذا العام نكبة عظيمة فانضيت ثياب النساء وخطفت الجواري والعذارى وتمنّى العقلاء الموت ولا حذا الحال

ثم نهض جماعة الباشا الى النهب فمنعهم وامر بجمع ما نهبوهُ فما وصل الاّ القليل اودعهُ بعض الجوامع وامر منادياً ينادي لتأخذ الاسلاب اصحابها فأخذ البعض وذهب الاكثر واما اتباع الباشا فطفقوا يقتلون كلّ من يصادفونهُ ويقطعون رأسهُ او يحبسونهُ وتناول أذاهم من في الدور وتعست الحال حتى قدرت البيوت المنهوبة بنحو اربعة وعشرين الف دار واكثر من ذلك من الدكاكين — كذا قال ابن بدير وكلامهُ فيهِ نظر لان عدد المساكن بدمشق كلها لهذا العهد بحسب احصاء الحكومة هو ١٨ الف دار حسب الاحصاء الاخير

وعدّد ابن بدير كثيراً من مظالم الدفتردار فتحي افندي قال ان الاهلين لما ضاقوا بهِ ذرعاً استعدوا الباب العالي فاعدام فأحضر الى العاصمة ليمثل بين يدي السلطان فاخذ يمنح الهدايا لارباب المظاهر اذ ذاك حتى أدخلوا على السلطان شخصاً آخر مكانهُ واوهموهُ انهُ فتحي فامر بقتلهِ فقتل للحال اما فتحي فسفرّهُ اعوانهُ من الغمار تحت جنح الدُّجى فآب الى الشام يفعل الافاعيل المنكرة حتى اذا ضاق الخناق ورد الامر بقطع رأسهِ فقطع وجرّ في شوارع المدينة وترك للكلاب تنهشهُ ومُثّل ببعض اعوانهِ وصودر

وكذلك قل عن سليمان باشا العظم المتوفى سنة ١١٥٦ الذي ولي هذه الحاضرة سبع سنين فانهُ مع ما كان عليهِ من طول الاناة ورزانة الحصاة وإبطال بعض المظالم — على قول ابن بدير — لما قضي نحبهُ صودر ما ادّخرهُ من مال وحليّ واوقع المفوّض بذلك في اسرتهِ ضرباً وتعذيباً على ابشع وجه حتى أيقن باحتياز المدّخر . فلما تسامع الناس بخبر ما استولى عليهِ من الاموال قاموا يجدّدون شفار المطاعن بالمتوفّى لاحتكارهِ مدة حكمهِ البضائع والغلاّت حتى غلت اسعار الارزاق والبضائع وذكروا انهُ كان متعدياً حدود الشرع ومراسيمهُ

وما قلتهُ عن سليمان باشا ومعاملة أُسرتهِ من بعدهِ قلهُ عن ابن اخيهِ اسعد باشا ذاك الذي حكم الشهباء ١٤ عاماً متوالية جرى فيها على قدم عمهِ فلما اغتيل فُوّض الى من ضبط اموالهُ

واموال جميع أتباعه فأخرجت الدفائن من سراياه وكان بعضها مخبوءًا في الارض والجدران والاحواض وبيوت الخلاء

ولا تسل عن إثارة الرأي العام اذ ذاك والعامة هنا وفي اكثر البلاد اذا وقفوا على طرف من الاحوال يشتدُّ بهم الحنق ولذلك يرى اكثر قادة الامم ان لا يطلعوهم على شيء من حقيقة السياسة بداعي أنَّ بحثهم فيها يعطّلهم عن أشغالهم ولا يزيد الحال الاَّ ارتباكاً . قال ابن بدير ولما دخل الشام حسين باشا المكي الغزيّ والياً خلفاً لاسعد باشا العظم بالاحتفال المعتاد جاء الاعيان من الغد الى قصره فوقف العامة في دروبهم وسبّوهم وشتموهم ورجموهم بالاحجار لانهم كانوا يدخلون الى اسعد باشا من قبل على تلك الكيفية من الخضوع وصاحوا خطاباً للاعيان انتم منافقون تعاونون الحكام الظلم وتعينونهم على الفقراء والمساكين

ولا يذهبنَّ ذاهب الى أنَّ كلَّ من ولي دمشق كان على هذه الشاكلة من الرغبة عن مصالح البلاد ويقولنَّ ان الظلم من شيم النفوس فلعلة قد لا يظلم الظلوم او ان يقرأ ترجمة المنصف المصلح من العمال فلا يرى لهُ من المادح الاَّ جامعاً او مدرسة او مقبرة بناها في حياته بالسخرة وأموال المغارم وجسراً من خشب او كوخاً من قصب او انهُ كان يلازم صلواته ويقرب الصلحاء والعلماء فقد ذكر المراديُّ عن الوزير محمد باشا العظم المتوفَّى سنة ١١٩٧ وقد ولي الشام احدى عشرة سنة منها عشر متوالية انَّ لهُ من المآثر والآثار في كلّ ولاية وليها خصوصاً في دمشق ما يحسن ذكرهُ ثم عدد مآثرهُ فقال انهُ رفع المظالم وانشأ المعالم وبالجملة فهو احسن من ادركناهُ من ولاة دمشق واكملهم رأياً وتدبيراً

وعلى هذا يتصرّف ما قالهُ المحبيُّ في ترجمة سنان باشا المتوفَّى سنة ١٠٠٤ وهو صاحب الآثار العظيمة في البلاد ومن جملتها الجامع بدمشق خارج باب الجابية والحمام والقرن المتَّفق على حسنهما ودقة صنعتهما ولهُ مثل ذلك في كل من القطيفة وسعسع وعيون التجار وعكاء مع خانات ينزلها المسلمون ولهُ ببولاق مصر جامع عظيم ومثلهُ باليمن وقسطنطينية وغيرها من البلاد جوامع ومدارس وخانات وحمامات تنيف على المائة . قال وبالجملة فهو اكثر وزراء آل عثمان آثاراً واعظمهم نفعاً للناس . قلت وما ادري من اين جلب سنان باشا كل هذه الاموال ولعلهُ كان موسراً قبل ان يلي شيئاً من امر الامة

ولاسعد باشا العظم حاكم الشام دارٌ تعدُّ اليوم من صروح النزهاء يقصدها السيَّاح للتفرّج على قاعتيها المشهورتين بجمال الصنعة ولطافة الاحجار وتحلية الجدران بالذهب مما يندر مثلهُ في هذه البلاد إلاَّ ما كان من قاعة بناها هو ايضاً في حماة قبل ان يتولى دمشق فان تلك

على ما نقل لي احد الثقات اعظم رواء وانعم بناء من هاتين. واليك الآن ما رواهُ ابن بدير في كيفية اقامة هذه الدار قال

في سنة ١١٦٣ شرع اسعد باشا في بناء دارهِ جنوبي الجامع الاموي فهدم الدور التي حولها وادخلها فيها وجدَّ في العمارة ليلاً ونهاراً واحضر لها ١٢ الف عمود خشب عدا ما اهداهُ اياهُ اعيان البلد وأوعز الى الاطراف بان لا يباع القصرمل إلاَّ اليهِ وشغل غالب بنائي البلدة ونجاريها ونقاشيها وجلب البلاط من اكثر دور المدينة وحيثما وجد بلاطاً ورخاماً واعمدة وفساقي يبعث بمن يقتلعها ويُعطي القليل في ثمنها . وكان على مقربة من مقبرة البرامكة فوق نهر بانياس قصر يقال لهُ الزهرائية مطلٌّ على المرجة الخضراء قيل إنهُ من بناء الملك الظاهر كان من المنتزهات العظيمة تهدم فاخذ انقاضهُ

ونمي اليهِ ان في وادي كيوان طاحوناً قديمة على نهر بانياس تهدَّمت ولم يبق تشتغل ساعتها نقطع ماء النهر واخرج ما هنالك من اعمدة واحجار وظلَّ العملة والحجارة واهل البساتين يقلعون وينقلون والنهر مقطوع ماؤهُ ١٢ يوماً . وفي خلال ذلك او لمحسن السفرجلاني وليمة شائقة لوالي الشام المشار اليهِ في قاعة ابن تُرُنق بالصالحية فرأى فيها ثلاث مرمرات طوال ضخام فطلبها لدارهِ ودفع لصاحبها شيئاً من المال فأبى فأخذها . ثم نقل الباشا من بصرى احجاراً وعمداً من الرخام كثيرة العدد واخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية عمداً غلاظاً حملها على عجلات وجرَّها بالثيران وهدم سوق الزنوطية فوق حارة العمارة وكان كلهُ معقوداً بالاحجار كالقبو ففكهُ واخذ احجارهُ ونقل احجاراً من جامع يلبغا تحت القلعة وابنيا سمع ببلاط لطيف او عمد حسنة يأتي بها شراء وبلا شراء ويشغل العملة بكراء وبلا كراء

على هذا النحو تمَّ بناء هذه الدار بخراب كثير من الدور والآثار شأن كل المباني الضخمة هنا كالخانات والجوامع لا تستقل بعمارتها اليد الواحدة ولكن اذا جرى حكم الضرورة المحظورة في قوانين الامم المتمدنة لتأتى إقامة كل اثر على اعظم هيا كلهِ

وغير خاف ان الجوائح السماوية كالزلازل والاوبئة والمجاعات لا تعمل في خراب البلاد عمل الجوائح الارضية من ظلم وضياع حقوق وقلة امن كما ان الفتن الداخلية تكون في الغالب ابلغ نكاية وإغراقاً في نسف العمران من الفتن الخارجية . وفي التاريخ شواهد كثيرة تنهض دلائل على صحة هذه الدعوى فقد أصيبت اوربا في القرون المتوسطة باوبئة لم تبق ولم تذر فلما هبت من رقدتها كانت كلا شيء وكذلك حدثت في اوائل النصف الثاني من القرن السادس في بر الشام زلازل خرَّبت المدن ودكت المعالم فقام نور الدين محمود بن زنكي واعاد اليهِ بعدلهِ

رونقها احسن من ذي قبل ومثل ذلك قل عن الوباء الذي فشا سنة ٧٤٩ والقحط الذي سبقهُ فما اصاب الشام اذًا من زلازل عام ١١٨٣ فهدم معظم المآذن والوفًا من الدور والجوامع والمحالّ العمومية والقرى التي ذهب بعضها بما فيهِ من حيوان وانسان والغلاء ضارب بجرانهِ والطاعون الجارف يودي بالانفس حتى صار يخرج من كل باب من ابواب المدينة كلَّ يوم الف جنازة وكذلك ما كان من الزلازل والاوبئة والمجاعات في القرن الماضي كان يمكن بعدهُ للبلاد إرجاع مجدها السالف لو لم تتغلب تلك الاسباب الارضية وتصبح الامور صورية

محمد كرد علي

رواية امينة

الفصل الثامن

مضت عليَّ ساعة زمانية وانا افكّر في ما صمَّمتُ عليهِ وفي ما ينال نافذ بك من فراقي وما ينالني من فراقهِ واذا انا بواحد يناديني باسمي ففتحت عينيَّ فرأيت نصرالله باشا نفسهُ واقفًا امامي فنظرت اليهِ والى ادهم بك وراءهُ مبهوتةً وانا اقول في نفسي ما اتى بهِ اليَّ وكيف تنازل الى هذا الحد . وكأنهُ رأى اضطرابي فتناول كرسيًّا وجلس وقال لي تعالي اليَّ يا امينة فقد قال لي ادهم بك انك تريدين مفارقتنا . فقلت "نعم" ولكن بصوت منخفض جدًّا حتى اضطرَّ ان يحني رأسهُ اليَّ ليسمعني . ثم قال احسنتِ فانهُ صار يتعذَّر عليك البقاء هنا بعد ان حدث ما حدث امس . واظن ان ادهمًا مصيب في انكِ تجدين راحةً في بيت بنتي . ولا احب ان نتركيتا مطلقًا ولكن ما دمتِ في بيت بنتي فانتِ في بيتنا كواحدة منا

وحاولت ان اشكرهُ على معروفهِ لكنهُ اسكتني قائلاً انتِ تعلمين بابنتي ان نافذًا لا يستطيع ان يتركك بسلام لانهُ مجنون ولا اظن انكِ تسلمين معهُ اذا طلب ان يكتب كتابهُ عليك سرًّا. وامرأتي مغاظة جدًّا من مسألة هذه الورقة التي وجدتها تحت عنبتهِ. فهل تستطعين ان تذهبي الآن

فذهلتُ من هذا السؤال وقلتُ لهُ كيف استطيع ان اذهب الآن

فقال الامر سهل جدًّا ولا اعني ان تمضي الى بيت بنتي حالاً اذ لا بد من انتظار المركب الذي يذهب الى هناك ولكن يسهل عليَّ ان ارسلكِ الى بيت رجل اعرفهُ في قباطاش